Litrix.de
GERMAN LITERATURE ONLINE

GOETHE INSTITUT

أمثلة من الترجمة

Peter Stamm

Weit über das Land

S. Fischer Verlag, Frankfurt am Main 2016
ISBN 978–3–10–002227–1

صفحات **9–25**

Peter Stamm

بعيدًا عن هذه الأرض

ترجمة د. هبة الله فتحي

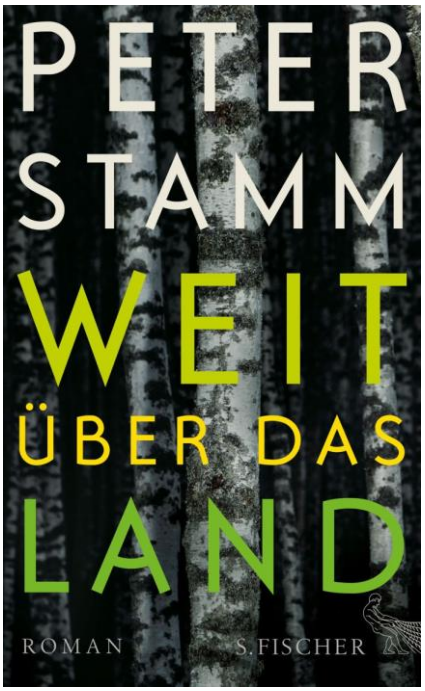

© 2016 Litrix.de

ثمة شجيرات صغيرة تفصل قطعة الأرض عن الجار، لا تلحظها نهارًا وهي تتداخل مع اللون الأخضر السائد، ولكنها تلقي بظلالها الطويلة مع غروب الشمس؛ سور يزداد مناعة باستمرار، إلى أن يختفي الضوء الأخير من الحديقة وتنغمس النجيلة المستطيلة في الظل؛ مثل زنزانة مظلمة لا مفر منها. يصير الطقس الآن مع منتصف أغسطس أكثر برودة، كأن البرودة والرطوبة تخرجان من الأرض التي انسحبتا إلى داخلها أثناء ساعات سطوع الشمس؛ دون أن تغادراها تمامًا.

شارك توماس وأستريد الطفلين الاستعداد للنوم، ثم جلسا بكأس نبيذ على الدكة الخشبية أمام المنزل وتقاسما جريدة يوم الأحد. سمعا بعد فترة صوت كونراد الباكي عبر النافذة المفتوحة، وضعت أستريد جزأها من الجريدة على الدكة متنهدة، أفرغت كأس النبيذ ودخلت دون كلمة ودون رجعة. سمع توماس صوت همهمة مهدئة، ورأى بعدها ببرهة ضوءًا في غرفة المعيشة. ثم أغلقت النافذة، إغلاقًا حاسمًا ينهي اليوم وعطلة نهاية الأسبوع والإجازة بالكامل. انطفأ الضوء مرة أخرى وتخيل توماس أستريد منحنية على الأرض في الممر لتفرغ الحقيبة الكبيرة التي وضعتها هناك بعد عودتهم مع المغيب. الطقس هنا في غيابهم كان حارًا، فالمنزل دافئ، والهواء راكد ومكثف، كأن هناك ضغطًا أعلى في الداخل. تصفح توماس خطابات البريد التي وضعها الجيران على منضدة غرفة المعيشة. وقفت أستريد مقتربة خلفه، شعر بحضورها وانتباهها دون أن يراها. قال: ما من شيء مهم، وجلس عند المنضدة. فتحت أستريد النوافذ وقالت أثناء خروجها إنها ستعد العشاء. كان قد اشتريا بعض الأغراض من محل محطة الوقود؛ خبز وحليب وجبن وكيس سلطة مخلوطة. اختفى الطفلان في الطابق الأعلى، وسمع توماس شجارهما. أثناء تهيئتهما – هو و وأستريد– الطفلين للنوم كاد كونراد ينام أثناء غسيل أسنانه، كما لم تطلب إيلا السماح لها بالقراءة.

تخيل توماس أستريد وهي تفصل الغسيل النظيف عن المتسخ في مجموعتين. تأخذ الغسيل المتسخ إلى غرفة الغسيل في الدور الأسفل، وتضع الغسيل النظيف في خزانة الملابس بغرفة الوالدين، أما غسيل الأبناء فتضعه على درج السلم لتحمله في الغد إلى أعلى. وقفت لبرهة عند بداية السلم وسمعت أصواتًا منخفضة في الدور الأعلى، كان الطفلان يتقلبان في سريريهما المفروشين حديثًا، يفكران أو يحلمان بالشاطئ أو بالمدرسة من جديد.

ألقى الضوء المنار توًا في غرفة نوم أستريد وتوماس شكلًا مخططًا عبر النافذة فوق النجيلة التي تخلت عن ألوانها مع حلول الظلام. ذهبت أستريد إلى الحمام، وعادت إلى الممر لتجلب مستلزمات العناية الشخصية من الحقيبة. نظرت إلى نفسها في المرآة بنظرة لا تعبر عن شيء، كالتي كانت توجهها إلى توماس أحيانًا. كان يسألها فيما تفكر، فتجيب، في كل مرة، إنها لا تفكر في شيء. بدأ، مع مرور السنين، يصدقها، ثم توقف عن السؤال عن أفكارها.

طوى توماس الجريدة ووضعها على الدكة. أخذ الكأس في يده ليفرغه، تردد، حرك النبيذ في الكأس، ثم وضعه دون أن يشرب منه إلى جانب كأس أستريد الفارغ. كانت مجرد صورة أكثر من كونها فكرة: الدكة المهجورة تحت ضوء الصباح، وقد حل الندى على أوراق الجريدة،، فتثنت، وفي نصف الكأس الممتلئ ذبابات فاكهة غارقة. انطلقت أشعة الشمس عبر الكأسين وعكست بقعة حمراء على الخشب الرمادي الباهت. خرج الطفلان من المنزل وانضما إلى قافلة الأطفال الآخرين في طريقهم إلى الحضانة أو المدرسة. ذهب توماس بعدها بوقت قليل إلى العمل. ألقى بتحية على جارته العجوز، التي عرف اسمها يومًا ما، ونسيه في هذه

© 2016 Litrix.de

اللحظة. كان يراها كل صباح مع كلبها، تخطو خطوات قوية على الرغم من عمرها، وترد التحية بصوت عالٍ واثق، وكأن كل شيء على ما يرام، وكأن كل شيء سيستمر على حاله. إن عاد إلى المنزل ظهرًا، ستكون الجريدة قد اختفت، وكذلك كأسا النبيذ.

نهض توماس وسار في الممشى الضيق، المفروش بالحصى، والموازي للمنزل. وصل إلى الناصية؛ تردد للحظة، ثم اتجه إلى بوابة الحديقة بابتسامة مندهشة، مرئية وليست محسوسة. رفع البوابة أثناء فتحها؛ حتى لا تصدر صريرًا، كما اعتاد أن يفعل وهو مراهق، حين يرجع من حفل متأخرًا، ولا يريد إيقاظ والديه. على الرغم من يقظته التامة، فقد شعر بنفسه يتحرك مثل مخمور، ببطء ويتحسس الأرض من تحته قبل كل خطوة. عبر الشارع ومر على منازل الجيران التي صارت غريبة عليه كلما ابتعد. كان هناك ضوء في بعض النوافذ، لم تكن الساعة قد بلغت العاشرة بعد، ولكن ليس ثمة شخص في الحدائق أو في الشارع. كبر أمامه الظل الذي ألقى به آخر مصباح في الشارع، وذاب في ضوء المصباح التالي، الذي ألقى بظلال جديدة خلفه، تقصر وتسبقه لتكبر من جديد أمامه؛ فريق من كائنات تشبه الأشباح، بلا جسد، وترافقه أثناء الخروج من الحي؛ يمر بطريق فرعي إلى المنطقة التجارية التي امتدت على مساحة كبيرة أمام القرية.

كانت بوابة شركة تدوير القمامة مفتوحة، وانطلق من الداخل صوت طنين رتيب. انحنى توماس لأسفل، كأنه يختبئ عن الأعين. التفت لحظة وصوله إلى القناة الصناعية القديمة لأول مرة إلى الخلف ولكنه لم يرَ أحدًا، لم يسمع سوى صوت طنين الماكينات الخافت من بعيد.

أدى به الشارع الموازي لمنطقة القناة إلى جسر صغير. تسارعت خطوات توماس، تخيل نفسه قد غادر حقل جاذبية القرية وأنه يتحرك دون أي موانع إلى داخل ساحة الليل التي لم يستكشفها بعد. كانت المراعي على يمين الطريق ويساره تابعة لمزرعة خيول، وقد أحيطت بسياجات سلكية عالية. وقفت في إحدي هذه المراعي في الخلف مجموعة خيول، متقاربة فبدت أجسادها في الظلام منصهرة في جسد واحد متعدد الرؤوس. لم يرَ توماس في مباني الفناء أي ضوء. توقف قبل الوصول إليها وأنصت. كان هو وأستريد يتجولان هنا مع الأطفال وهم صغار، ولكنه لا يتذكر إذا كان أصحاب المكان يمتلكون كلبًا. مر سريعًا من أمام المباني. لم يسمع أي أصوات بعد، ولكن فجأة سقط ضوء كشاف هالوجيني، وأنار الساحة الأمامية وجزءًا من الشارع.

تنفس توماس الصعداء لحظة وصوله إلى حدود الغابة. لم ير القمر، ولم يكن الضرب المفروش بالحصى داخل الغابة واضح المعالم. بدى له أن عتمة الليل كانت تأخذه إلى الأمام. أدى به الضرب بموازاة سد مائي، ثم فوق جسم السد نفسه إلى شريط الغابة الضيق على الناحية الأخرى. كان الضوء هناك أفضل. سمع من بعيد صوت سيارات وقطار. نظر توماس إلى الساعة وقرأها بصعوبة. كانت العاشرة والنصف، وقد جاء القطار في موعده. فكر لوهلة في مشهد دخول مجموعة العربات إلى داخل محطة القطار المضاءة، ونزول الركاب القلائل وعبورهم النفق السفلي إلى موقف الدرجات؛ يركبون، ويختفون في جميع الاتجاهات.

توقف توماس للحظة، أدرك هدوء الغابة من حوله. ربما لم يشعر لهذ السبب تحديدًا بالوحدة. شعر أن هناك من يتربص به في الظلام، ليس إنسانًا أو حيوانًا، بل كائن حي ما شمل الغابة بأكملها. تابع الطريق إلى النهاية، لم تبقَ بعده إلا مسافة تقل عن مائة مترٍ إلى منطقة تصب فيها القناة الصناعية بزاوية حادة في مجرى النهر. عبر توماس المرج، إلى مكان كانوا، وهم شباب يوقدون فيه

النار أحيانًا ويتجمعون في المساء. بدت مياه القناة أكثر تدفقًا من النهر، الذي جف سريره قبل موضع المصب. ومع ذلك كان من الصعب المرور إلى الناحية الأخرى. جلس توماس على مكعبات حجرية خشنة، كانت تثبت هذا الموضع. انطلقت رائحة عفنة من سرير النهر. أخرج علبة السجائر وتحسس بأصابعه السجائر، كانت إحدى عشرة سيجارة. أشعل سيجارة منها، ونظر إلى السماء التي صارت مظلمة تمامًا الآن. والرغم من صفائها لم يرَ نجومًا كثيرة. حصر ممتلكاته في جيب بنطاله: مجموعة مفاتيح بكشاف يد صغير، وسكينًا صغيرا، وخيوطًا حريرية لتنظيف الأسنان، وولاعة، وشنطة قماشية صغيرة. عد في ضوء الكشاف نقوده؛ أكثر من ثلاثمائة فرنك بشيء بسيط. شعر بالبرد، وفكر لوهلة في إشعال نار. قرر بعدها مواصلة السير، عائدًا إلى جسر المشاة الصغير عبر القناة، ثم متوجهًا ناحية الوادي في اتجاه الغرب.

كانت الألواح الخشبية على أرضية الجسر الصغير مبللة وزلقة، فأمسك توماس بالسور كي لا ينزلق. وصل إلى ضرب ضيق لدرجة أنه تخيل أن الشجيرات الصغيرة يمينًا ويسارًا تدفعه في الظلام الدامس إلى ضرب مفروش بالحصى، يمتد مستقيمًا لمسافة نصف كيلومتر، ومشى لمسافة مثلها عبر مساحات للرعي. رأى أمامه سيارتين تعبران جسر الطريق سريعًا، فلامست أضواء كشافاتهما منازل القرية على جانبي النهر، ثم اختفتا سريعًا خلف الهضبة. حين وصل إلى الطريق العمومي سمع سيارة أخرى آتية من بعيد. اختبأ خلف العشب العالي للمنحدر وانتظر، سمع من بعيد قدوم سيارة أخرى، اقتربت السيارة وتجاوزته. بعد أن عم الهدوء، قفز توماس من مكانه وركض عبر الجسر. ترك، قبل وصوله إلى القرية، الطريق العمومي مرة أخرى، ومشى في طريق آخر ضيق موازٍ للنهر؛ يؤدي إلى ساحة الطيران الشراعي ويستمر. كانوا يأتون وهم أطفال إلى هذا المكان بالدراجات ليشاهدوا الطيارين، ولكن توماس لم يهتم حقًا بالطيران، كان يذهب من أجل أصدقائه الذين حلموا بالطيران في يوم من الأيام.

كان على حافة الممر المغطى بالنجيلة عنبر طويل، وقد اختبأت خلفه سياج نباتي دستة من عربات السكن المتنقلة، التي لم ير توماس منها سوى معالمها العامة. لم ير نورًا أو يسمع أصواتًا . شعر بالاجهاد، ذهب إلى أول عربة سكن متنقل، تحسس مقبض الباب وضغط عليه بحذر لأسفل. كان الباب موصدًا، والعربات الأخرى كانت أيضًا موصدة، ولكن كان لعربة منها خيمة تمكن من فتحها بسهولة. شعر لحظة دخوله بألواح الخشب التي تغطي الأرضية، كان الهواء راكدًا، له رائحة عشب وبلاستيك قديم، وحموضة طعام. رأي في ضوء الكشاف الضعيف منضدة معسكر، وأربعة مقاعد، ومطبخًا بدائيًا وموقد غاز بعينين اثنتين، وحوضًا. كما وجد في ركن غطاء من قماش صلب ومبطن. تلفح توماس به، وتمدد على الأرض، ولكن ظل يشعر بالبرد. لم يستطع النوم على هذه الأرضية القاسية وظل يفكر في منزلة. تساءل عما إذا كانت أستريد قد لاحظت غيابه. كانت كثيرًا ما تنام قبله ولا تستيقظ لحظة دخوله الفراش.

إن لاحظت أستريد في الصباح عدم وجود توماس بجانبها في الفراش، ربما ستفكر أنه نهض قبلها، مع أنها دائمًا تستيقظ قبله. تترنح نعسًا وهي تصعد الدور الأعلى لتوقظ الطفلين، وتعود مرة أخرى. تأخذ حمامًا، وتخرج بعد عشر دقائق بروب الحمام نشيطة، تنادي على الطفلين اللذين لم ينهضا من الفراش بعد. كونراد! إيلا! هيا! إن لم تنهضا الآن ستتأخران على المدرسة. العبارات نفسها دائمًا، وكذلك الإجابات. دقيقة واحدة، لقد نهضت بالفعل، سأحضر حالًا. ستلقي أستريد نظرة وهي في طريقها إلى المطبخ إلى داخل غرفة المعيشة وستتعجب للحظة من عدم وجود توماس هنا أيضًا. ولكن هذه الساعة في الصباح تسير وفقًا لنظام

ثابت، لدرجة أنها لا تجد وقتًا للتفكير في شيء بخلاف ما هو مطلوب في هذا الوقت. تشغيل ماكينة القهوة بعد ملئها بالماء، وإعداد السفرة؛ الخبز، والزبدة، والمربى، والعسل، والحليب، وبودرة الكاكاو.

نادت مرة أخرى على الطفلين، بصوت أعلى ونبرة سخط، صبت لنفسها فنجان قهوتها الأول وشربته واقفة. نزل الطفلان الدرج أخيرًا، وجلسا إلى المائدة. بالكاد فتح كونراد عينيه، وضعت إيلا كتابًا مفتوحًا إلى جانبها، اضطرت أستريد إلى تنبيهها مرتين، حتى أغلقت الكتاب في تذمر، ودهنت شريحة خبز بالزبدة. أخيرًا سأل كونراد وفمه ملآن: أين بابا؟ كان يجب أن يذهب مبكرًا اليوم، لا تعرف أستريد سببًا لقولها هذا، كان هذا هو التفسير الأبسط، بمجرد أن قالته كاد يصبح حقيقة. كان يجب عليه الذهاب مبكرًا إلى المكتب. لم يسأل الطفلان مرة أخرى، على الرغم من عدم خروج توماس قط قبل الفطور من المنزل. فكرت أستريد لوهلة إذا كان توماس قد ذكر ميعادًا من قبل، ولكن نهض الطفلان في هذه اللحظة وكان يجب عليهما التأكد من أنهما لم ينسيا شيئًا. هل ستسبحان اليوم؟ ارتدي الصندل. نعم، ستحتاج إلى بلوفر، فالطقس في الخارج بارد. الكتاب سيظل هنا، هيا! قبلت الطفلين على وجنتيهما ودفعت بهما خارج الباب. ظلت للحظة واقفة في الباب المفتوح، وظلت تتابعهما بنظرها، إلى أن اختفيا بعد الناصية. سمعت صرير بوابة الحديقة المعهود قبل أن تُغلق. كانت رائحة الخريف قد بدأت تنتشر في الجو. فكرت، وهي في الحمام وتجفف شعرها، في رغبتها في الذهاب إلى المسبح اليوم. كان يجب عليها اليوم غسل الغسيل، والانتهاء من تفريغ الحقائب، وقضاء المشتريات. وضعت لنفسها خطة. فكرت لحظة الخروج من الحمام مرة أخرى في توماس. اتصلت بالمكتب وقالت السكرتيرة إنه لم يصل بعد، وسألت عما إذا كانوا قد قضوا إجازة سعيدة. نعم كانت جميلة، هل يمكنك الاطلاع على جدول مواعيده؟ قالت السكرتيرة بعد لحظة: لا، لا توجد مواعيد إلا ميعادًا بعد الظهر مع أحد الزبائن. قالت أستريد: أرجو إبلاغه بضرورة الاتصال بي لحظة وصوله.

ذهبت بالدراجة للقيام بالمشتريات، ونشرت الغسيل في الحديقة، وأفرغت الحقائب. وجدت قواقع في كيس بلاستيكي، كان الطفلان قد جمعاها من الشاطئ. حين أفرغتها فوق المنضدة سقط معها رمل. وضعت القواقع والحلزون في صندوق زجاجات، ومسحت الرمل برفق عن المنضدة حتى لا تخدشها. ثم وضعت الحقائب في السقيفة. كان الطقس حارًا بأعلى، وكان الهواء رطبًا. تذكرت أستريد الأسبوعين على البحر بحنين مؤلم بعض الشيء، الجو الحار الذي تحبه، والأسواق الإسبانية، والخضار الرائع، والفاكهة، والأنواع التي لا تحصى من السمك المعروض للبيع. قال توماس في أحد الأيام الأخيرة مازحًا: سنبقى هنا. ضحكت، ثم فكروا سويًا كيف سيكون الحال لو عاشوا على شاطئ البحر العام بأكمله. كانت لعبة، ولكن أستريد رأت في عيون توماس والطفلين نور البهجة. ولكن كيف سنحصل على المال؟ سنصنع من القواقع حليّاً، ونبيعها على الكورنيش. وماذا عن المدرسة؟ أبي سيكون معلمنا. قالت أستريد: ولكن الحياة في منزلنا جميلة أيضًا. لن يكون البحر مميزًا لو كان قريبًا طوال الوقت. كما أن الطقس في الشتاء بالتأكيد عاصف والرطوبة مرتفعة في المنزل، ولا توجد تدفئة جيدة هنا. كانت هي دومًا صوت العقل في علاقتهما وفي سياق الأسرة. تتساءل أحيانًا عن اختيار توماس لحياة مختلفة لو لم يتزوجا.

© 2016 Litrix.de

لم يتصل توماس. ربما حاول أثناء خروجها للمشتريات ولم يرغب في ترك رسالة، أو ربما نسى. من المؤكد أن أعباء العمل كثيرة بعد الإجازة، وعليه التفكير في مئات الأمور. شعرت أستريد بالحرج من معاودة الاتصال بالسكرتيرة. قررت الذهاب إلى المسبح لفترة قصيرة. قررت أثناء الإجازة تكثيف نشاطها الرياضي، بأن تذهب للسباحة ما دام الطقس يسمح، وأن تعاود الجري.

أعلن المذياع عن سقوط أمطار بعد الظهر، وانخفاض في درجات الحرارة، ولكن لا مؤشر على هذا التغير الآن. كان المسبح، على الرغم من ذلك، خاليًا من البشر تقريبًا. غمر أستريد شعور بالتميز، لإمكانية السباحة في عز النهار، ولكنها أحست في الوقت ذاته بنفيها خارج العالم الوظيفي الذي يتحرك توماس داخله، وكذلك الطفلان اللذان يجلسان الآن في المدرسة، ومنغمسين في حل مسألة رياضية، أو كتابة موضوع تعبير عن الإجازة. كان ضميرها يؤنبها، ولكن كان لهذا الشعور الخفيف بالذنب جانب مشبع أيضًا.

كبائن استبدال الملابس قذرة، والمخلفات تغطي المكان، والأرضية – المدهونة بلون أزرق فاتح– لزجة. من المؤكد أن المكان كان يعج في الأمس بالزوار، آخر أيام الإجازة، ربما كان أخر أيام الطقس الدافئ في العام كله. شعرت بعد أسبوعين من السباحة في البحر المالح بثقل، كأن شيئًا ما يسحبها لأسفل. سبحت عشر جولات فقط، ثم استلقت في الشمس ليجف لباس السباحة بعض الشيء. عادت إلى المنزل في الساعة الحادية عشر والنصف، أفرغت صندوق البريد، والقت نظرة سريعة على الجريدة، ثم نشرت آخر مجموعة غسيل. كانت قد وعدت الطفلين بوجبتهم المفضلة؛ الفطائر بالتفاح المهروس والنوتيلا. أشعلت أثناء إعداد الطعام المذياع، على الرغم من إزعاج المذيعين خفيفي الظل لها، يتحدثون هراءً، ويعاملون المتصلين الذين يجيبون عن أسئلة تنافسية على أنهم أغبياء. عاد الطفلان متأخران. لم يريا أصدقاءهما منذ أكثر من خمسة أسابيع، ومن المؤكد أنهما تحدثا عن الكثير أثناء عودتهما. ألقت إيلا تحية قصيرة، ثم اختفت في حجرة المعيشة في الحال. عندما أعدت أستريد المنضدة للطعام، كانت جالسة على الأريكة ومستغرقة في القراءة. كيف كانت المدرسة اليوم؟ همهمت بشيء غير مفهوم. ضبطت كونراد وهو يقطع جزءًا من الفطيرة ويضعها في فمه. نادت: أبعد يدك، ألا يمكنك الصبر؟ سأل كونراد: أين أبي؟ قالت أستريد: لن يأتي لتناول الغذاء، هو مشغول. قال كونراد: إذا لدينا فطائر أكثر لنأكلها. حكى الطفلان عن الأماكن التي قضى فيها زملاؤهم الإجازة. لم تنصت أستريد جيدًا، كانت مشغولة البال بتوماس. ماذا قد يحدث له؟ كان بالأمس مثل عادته. لم يحدث أي شيء ملفت أثناء الإجازة، بل على العكس كانا على مدار الأسبوعين، على غير العادة، في منتهى الانسجام. قضيا معظم الوقت على الشاطئ أو في المنزل. طريق العودة بالسيارة كان مرهقًا، توقفوا مرتين في فرنسا وسط السيارات المتكدسة. ولكن توماس لا يميل إلى الانفعال بسبب أمور كهذه؛ إنه إنسان متزن، يقول عن نفسه أحيانًا إنه إنسان عادي. هناك بالتأكيد تفسير بسيط جدًا لغيابه. لم تكن أستريد قلقة.